انطباعات في تجربة تطبيقية

إمكانات الدراما كسياق لإعداد القيادات الشابة

حافظ معين

تأتي هذه التجربة في سياق برنامج نفذته مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي[1] في منطقة نابلس تحت عنوان "شباب الغد"، حيث شارك في البرنامج فتيان وفتيات تراوحت أعمارهم ما بين (١٣ – ١٨ عاماً)، من مختلف أنحاء المدينة، وذلك ضمن الرؤيا التي تتبناها المؤسسة عبر إعداد فئة شبابية قادرة على تنمية المجتمع الفلسطيني، من خلال نشر بذور الثقافة عبر العمل المجتمعي التطوعي. وفي ضوء هذه الرؤيا، فقد تضمن البرنامج مجموعة من الورش في مواضيع عدة، وهي: حقوق الإنسان كجانب من جوانب التنمية، القانون الدولي الإنساني والجندر حقوق الأطفال، معرفة الأوضاع الفلسطينية والضغط والتشبيك والعمل المجتمعي، التفكير المنطقي، الكتابة الإبداعية، الدراما.

(١)

أخذت هذه التجربة طابع الاختبار، ليس لما يمكن للدراما كموضوع قائم بذاته أن يقدم للمشاركين في سياق البرنامج فحسب، بل لكيفية إخراج ما أمكن مما تضمنه البرنامج بمواضيع ورشه المختلفة، في سياقات درامية تربوية، تمكن المشاركين، عبر تقنيات الدراما المتعددة، من اختبار ما تعلموه عبر "واقع" أسس له "خيالهم".

فعبر الدراما، يستكشف الإنسان ذاته، بأن يراها بمنظار الآخر، ويحاورها بصوته، انطلاقاً من مبارحة ما تحمله هذه الذات من تجارب شخصية، وموروث ثقافي، وبنية نفسية، وطرق تفكير، والوقوف على حافتها، مبقياً على الضروري للانخراط في سياقات تخيلية لواقع هذا (الآخر): تجربته الشخصية، موروثه الثقافي، بنيته النفسية، طرق تفكيره، دوافعه ونواياه، وإنتاج صور جديدة للذات، وإنتاج صوت جديد لمحاورتها والتعبير عنها.

ومن خلال توظيف ما تقدمه الدراما من حوارية التفكير والتعبير في سياقات تربوية، فإن المشاركين في عملية التوظيف هذه يؤسسون معاً واقعاً بكل تداعياته عبر استنهاض الخيال بهدف الدخول في عملية تعلمية تتخذ من قدرتهم على التعلم قاعدة لرفع جسور من قدرات مكتسبة نحو معرفة جديدة.

(٢)

تقاطعت الفترة الزمنية التي نفذت فيها هذه التجربة مع تجليات تجربة أخرى كنت أحد المشاركين فيها عبر ورشة أقامها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، تناولت موضوع الدراما في سياقات تربوية بإشراف وسيم الكردي، حيث لعبت هذه التجربة دوراً مهماً في إثارة العديد

من الأسئلة لديَّ حول الآلية التي تمكنني عبر عملية تفاعلية بيني وبين المشاركين في ورشة ما، من توظيف الدراما في طرق أبواب جديدة للمعرفة، واستكشاف تجلياتنا الإنسانية في ظلال هذه المعرفة. ففي هذه التجربة، تم توظيف الدراما في سياق (استخدام الدراما في سياقات تربوية)، عبر استعراض إطار نظري تارة، والتفاعل ضمن أطر تطبيقية تارة أخرى. ومن خلال هذه الأطر، مررت بالكثير من النظريات والتوجهات التربوية الحديثة عبر سياقات عدة لتجارب مع الأطفال في شتى المواضيع؛ مثل قراءة القصص، وتوظيف الدراما في استكشاف النص الشعري، وغيرها، والأسئلة التي تواردت إلى ذهني في بداية تلمس المفارقة ما بين ما كنت أفعله مع الأطفال في الورش، وبين المعارف الجديدة التي جربتها فعلاً عبر الفعل الدرامي، هي:

ما مدى قدرتي (كعامل في مجال الدراما) على توظيف التجارب التي مررت بها عبر ورش الدراما مع مركز القطان في تجارب أخرى مع الأطفال، بما يتناسب مع خصوصية هؤلاء الأطفال التي تفرضها بيئتهم المحيطة بكل تداعياتها؟

هل عليَّ أن أكرر هذه التجارب ذاتها لأنها وصلت مبتغاها مع شريحة من المشاركين (ربما أستطيع الجزم) أنها لن تتكرر معي بالظروف نفسها، أم عليَّ عند نقطة ما من هذه التجارب أن أطور في التجربة عبر اقتراح سياقات أخرى، وتجريبها بما يتناسب مع ظروف وطبيعة التجربة التي أنا بصدد خوضها؟

وأخيراً، هل أستطيع أن أعالج مشكلة تربوية ما عبر تصميم تجربة متكاملة، أوظف فيها ما تستطيع الدراما أن تقدمه في هذا السياق؟

إن أهم ما تعلمته من خلال هذه الأسئلة التي وضعتني أمامها تجربتي مع مركز القطان هو أنني لا أقوم بدور ثانوي كمدرب يقوم بتطبيق ما أعده وجربه الآخرون دون أن أوظف رؤيتي وخبرتي الشخصية، مضيفاً إلى ما قد وصل إليه الآخرون عبر تجاربهم وخبراتهم الخاصة.

(٣)

كنت قد مررت – عبر ورشة مركز القطان – بتجربة تمرين عمل الصور الجامدة (still images)، بما يعرف بتمرين النحات، حيث يقوم أحد المشاركين ضمن مجموعة صغيرة بنحت صورة من أجساد الآخرين لما يرى أنه حدث ما، متحكماً بأوضاعهم الجسدية وتعبيرات الوجوه في إطار الصورة الجامدة التي يصممها للحظة معينة من الحدث الذي يرتئيه، شرط أن لا يتدخل المشاركون معه في رؤيته لإخراج هذه الصورة، ومن ثم يقوم بإدخال نفسه في الصورة متفاعلاً بإيماءات جسده مع الحدث الذي صوره، وقد أطلعنا أيضاً على سبل توظيف هذا التمرين في خدمة سياقات متعددة.

وعبر التجربة التي خضتها مع برنامج "شباب الغد"، فقد حرصت طوال فترة العمل مع المشاركين على المناغمة ما بين الدراما والمسرح كفن له تقنياته ومقصدياته من جهة، وبين توظيف هذا الفن في سياقات تربوية من جهة أخرى، وذلك عبر التدرج منذ بداية التجربة في تعريف المشاركين بمفاهيم الدراما، عبر سياق نظري، ومن ثم الانتقال إلى تجريب هذه المفاهيم في سياق عملي بهدف ترسيخها في بدايات التجربة وعبرها، ومن ثم الانتقال لاحقاً إلى توظيف هذه المفاهيم في استكشاف ما تعلمه المشاركون في الورش الأخرى، وما تستطيع الدراما بشكل عام أن تضيفه إلى خبراتنا الإنسانية، وقد بدأت تطبيق هذه الرؤيا من خلال توظيف تمرين (النحات)، بأن وزعت المشاركين ضمن مجموعات رباعية من كلا الجنسين، ومن ثم طلبت من كل مجموعة أن تختار نحاتاً، وتبدأ بتطبيق خطوات عمل التمرين بهدف إنتاج صورة لحدث ما، بعد ذلك قمنا بعرض الصور التي أنجزتها المجموعات، وتناقشنا حول ما يراه كل مشارك في الصورة، وبعد الانتهاء من عرض جميع الصور وتعريفها، دخلنا في إطار نظري عَرَّفتُ من خلاله الدراما اصطلاحاً وعناصر اللحظة الفنية، موظفاً في هذا السياق ما قام به المشاركون من إنتاج لصور عبر تمرين النحات، وسأتحدث لاحقاً عن كيفية توظيف هذا التمرين في سياق تطوير الكتابة الإبداعية لدى اليافعين.

في مرحلة لاحقة قمت بتوظيف الدراما في استكشاف

وتحليل النص الشعري عبر تناول قصيدة الشاعر محمود درويش "أبد الصبار"، وذلك عبر العمل ضمن توجهين:

الأول- بهدف خلق أجواء تتيح للمشاركين تجربة النظر إلى حدث ما، من خلال زوايا متعددة، وبالتالي تفهم وتقبل تكوُّن أراء وأفعال وانطباعات حول حدث ما، تتنوع وتتناقض وتتشابك لتفرز أحداث أخرى في سياق الحياة اليومية، (توظيف الدراما في تناول مفاهيم حقوق الإنسان).

الثاني- توظيف ما تقدمه القصيدة من سرد لتاريخ فلسطين عبر ذكرها لمحطات مفصلية في مسيرة النضال الفلسطيني ضد الاحتلال المتعاقب لهذه الأرض من قبل العديد من الأمم، (توظيف الدراما في دراسة الأوضاع الفلسطينية).

وقد مررت شخصياً عندما كنت في السابعة عشرة من العمر في تجربة توظيف الدراما في استكشاف فضاءات النص الشعري عبر تناول القصيدة بذاتها "أبد الصبار"، وذلك بهدف تطوير قدرات اليافعين في مجال الكتابة الإبداعية، التي أشرف عليها وسيم الكردي من خلال مؤسسة تامر.

ما أريد أن أوضحه عبر هذين المثالين(ولربما في إجابة عن الأسئلة التي وضعتني أمامها تجربتي في ورشة مركز القطان) هو محاولاتي البسيطة في توظيف تمارين وتجارب مررت بها كمتدرب، ضمن سياقات جديدة قد لا تختلف في شكلها، وأسلوب تناولها، وتطبيقها، ولكنها تختلف في الهدف الذي وظفت لخدمته.

(٣)

أتخذ العمل في السياق النظري طابع تحفيز التفكير عبر إثارة الأسئلة حول الانطباعات والأحاسيس الفردية بعد كل تمرين تطبيقي، والإجابة عن أسئلة المشاركين بأسئلة أخرى، والتفكير الجماعي عبر العمل والنقاش ضمن مجموعات.

(٤)

لم يكن المشاركون في المجموعة حقلاً لتجربة برنامج مقترح من قبلي كمدرب، لقد كنت حريصاً قبل البدء على أن أتابع المشاركين أثناء الورش الأخرى، وعلى متابعة الموضوعات التي تطرقت إليها هذه الورش، ومن ثم وضع تصورات عامة لما يمكن أن يدور في لقاء الدراما عبر وضع أهداف ومقصديات مرحلية يتراكم تحقيقها في كل مرة، وصولاً إلى تحقيق الأهداف العامة لاختيار الدراما ضمن سياق البرنامج ككل، كما أنني كنت حريصاً على مراجعة كل التمارين والأساليب التي أعرفها لتحقيق الأهداف المرحلية المذكورة، وعملت على اختيار المناسب منها في كل مرة تبعاً لسير الورشة، لقد أملى عليَّ المشاركون – دون أن يعرفوا- الطريق الذي يناسب أداءهم لأصل إلى أهداف البرنامج! كما تجدر الإشارة إلى أنني تعلمت كثيراً

من خلال التعديلات التي أضافها سير اللقاء على بعض التمارين، والسياقات التي تناولت موضوعات العمل، لقد نالت الدهشة نصيبها مني عندما كنت أرى كيف يسير سياق أحد النشاطات نحو آفاق لم أكن مهيئاً لاكتشافها، وذلك بفضل الطريقة التي تفاعلنا فيها معاً في إحدى مراحل النشاط.

ولم يكن هذا النشاط سوى تمرين (النحات) الذي أشرت إليه سابقاً، ففي أثناء عرض الصور قمت بتصويرها، مستخدماً آلة تصوير رقمية وبعد الانتهاء من النقاش حول ماهية الدراما وعناصر اللحظة الفنية، الذي تميز بذهنية عالية من قبل المشاركين، ولبراعتهم في التقاط لحظة درامية مؤثرة وبثها في صور جامدة، فقد قررت -بناء على ذلك- توظيف تلك الصور في عملية تحفيز لخيال المشاركين وتوجيههم، للبدء في كتابة قصة قصيرة انطلاقاً من منتصفها أو من نهايتها!، لقد قمت بعرض إحدى هذه الصور باستخدام "البروجكتر" على الحائط، وقمت بتوزيع أوراق وأقلام "ماركر" كتلك المستخدمة في الكتابة على الألواح البلاستيكية البيضاء، وطلبت من كل واحد منهم أن يختار شخصية من الشخصيات الموجودة في الصورة، وأن يكتب على الورق ما تقوله هذه الشخصية بناء على موقعها من الحدث، بحيث يكون ما تقوله الشخصية المختارة إما صوتا داخلياً وإما صوتاً موجهاً عبر حوار.

لقد كان الناتج أن قام المشاركون بكتابة أكثر من ٢٥ ورقة تضمنت عبارات متخيلة لكل شخصيات الحدث الممثل في صورة معروضة على الحائط، بعد ذلك طلبت من أحدهم بشكل عشوائي أن يقوم بلصق العبارة التي كتبها على الحائط الذي عرضت عليه الصورة قرب الشخصية التي اختار أن يتحدث على لسانها، لكي تبدو وكأنها جزء من الصورة المعروضة، ومن ثم طلبت من الآخرين القيام بالعملية نفسها تباعاً، وفي كل مرة كان المشاركون ينتهون من وضع العبارات عند كل الشخصيات الموجودة في الصورة، كنا نتوقف لمناقشة الحوارات الناتجة جراء هذه العملية، لقد حصلنا في نهاية هذه المرحلة من النشاط على كم هائل من كافة أنواع الحوارات التي تدور بين شخصيات الحدث في الصورة، بل لقد ذهب بنا الأمر إلى أبعد من ذلك، لقد لمسنا معاً عن قرب ما قد يفعله تغير الكلام من تغير على صورة لحدث ما، بمعنى أننا قد حصلنا على العديد من الأحداث المبنية على صورة واحدة لم تتغير بناءً على ما تخيله المشاركون من أصوات للشخصيات المشاركة في الحدث، ولم يكن هذا ليحدث بالتأكيد لولا خصوبة خيال المشاركين وتفاعلهم الرائع مع نشاط أملته فاعليتهم معي منذ البدء، ولم تتوقف دهشتي عند هذا الحد، فلقد توقفنا عن تبديل (الحوارات) والنقاش حولها بأن اتفقنا على اختيار أحدها، ومن ثم الشروع في كتابة قصة بناء عليه، لقد أوضحت قبل الشروع بالكتابة أن اللحظة التي تعبر عنها الصورة المدعمة بالحوار الذي اخترناه ليس من الضرورة أن تكون في بداية القصة أو في نهايتها، وأن القصص والأعمال الفنية كافة، بشكل أو بآخر، فيها دائماً ما قبل البداية وما بعد النهاية، وأنه باستطاعتهم نسج السياق الذي أدى إلى اللحظة التي نقف بصددها، أو نسج السياق المترتب عليها في قصة قصيرة، بالأسلوب الذي يرتأونه مناسباً، وبالنمط الكلامي الذي يتيح لخيالهم أكبر مساحة من الحرية، سواء بالعربية الفصحى أم بالعامية، ذلك أن الهدف في النهاية من النشاط أن يطور الأطفال من قدراتهم على تحفيز خيالهم في سياق التعبير الجمالي عن انفعالاتهم ومشاعرهم إزاء ما تلتقطه حواسهم من مؤثرات عبر سياق درامي، وليس مدى إجادتهم في هذه المرحلة للنطق بالعربية الفصحى.

لقد انهمك الجميع في كتابة قصصهم الخاصة انطلاقاً من القاعدة نفسها، وبعد الانتهاء من الكتابة أصر معظمهم على قراءة ما كتبوا، وقد كان رائعاً حقاً ذلك التنوع في أساليب الكتابة لدى المشاركين، وقد اخترت مطلع إحدى القصص التي كتبتها إحدى المشاركات، لتكتمل الصورة التي كان عليها هذا النشاط في سياق التجربة.

(لقد سمحت لنفسي بإضافة بعض التعليقات ما بين قوسين ليستقيم المعنى لدى القارئ)

ماذا عن حكم المتدخل؟
وعن طمع الحكام؟

الملك: حبك أجمل من شروق الشمس.
الملكة: يا نيالي شو بحبني.
الخادم الأول (في صوت داخلي): آه منك ... يا ريت تتزوجي ونرتاح منك.
الخادم الثاني (في صوت داخلي أيضاً): أشعر بخطر ما! يجب أن أخرب هذا الحب.
الملك: وافقي على الزواج وشوفي شو بصير.
الملكة (مترددة) : بس ... .
الملك: بدون بس... .
الملكة: أنا بدي أضمن مستقبلي معك شو رح تعمل؟
الملك: شو ما بدك؟